الفصل الثاني

من زكريا إلى ولادة المسيح

النبي زكريا وابنه النبي يحيى وعلاقتهما بمريم والمسيح عليه السلام

لم تتعرض التوراة للحديث عن النبي زكريا كنبي من أنبياء بني إسرائيل لأن التوراة دُونت قبل مجيئه بكثير. ولكن مصادر أخرى يهودية ونصرانية تحدثت عنه وأسهبت، كونه جاء في عصر بعثة المسيح عليه السلام. وقد ارتبطت سيرته بسيرة ابنه النبي يحيى الذي تطلق عليه المصادر المسيحية اسم يوحنا المعمدان. وكذلك ارتبطت سيرته بسيرة أم مريم ومريم والدة السيد المسيح. ولما وجدنا اختلافات بين ما جاءت به المصادر المسيحية وما جاء به القرآن الكريم فقد كان من المحتم دراسة شخصيته وشخصية ابنه كما وردت في النصوص المشار إليها حتى تتضح معالمها وزمنها ومكانها.

لقد سجلت التوراة سفراً باسم زكريا ورقم السفر في العهد القديم هو الثامن والثلاثون حسب ترتيب التوراة. ولكن تدوين التوراة الذي تم أيام السبي البابلي يؤكد لنا أن زكريا الذي له سفر وُجد قبل زكريا النبي الذي ورد ذكره في القرآن الكريم والمصادر النصرانية بأكثر من خمسمائة سنة على الأقل وتؤكد كافة المصادر أن السفر مكتوب في زمن دايوس الفارسي.

أما قاموس الكتاب المقدس فيقول عن زكريا الذي نبحث عنه: إنه كان كاهناً من فرقة أبيا. وهو أبو يوحنا المعمدان. وقد ذكرت صفاته وصفات امرأته بأبسط العبارات وأتمها وضوحاً. وكان كلاهما ورِعَين بارّين سالكين في جميع الوصايا وباذلين وسعهما ليحصلا على نعمة الروح القدس. أما مولد يوحنا

فأعلن عنه بطريقة عجيبة خارقة للعادة. فلم يصدق زكريا بل شك وطلب علامة غير اعتيادية دفعاً لما في نفسه من الريبة فكانت آيته أنه فقد قوّة النطق وبقي صامتاً إلى اليوم الثامن بعد ميلاد الصبي. إذ دعاه يوحنا حسب قول الملاك له. وفي الحال انطلق لسانه وعاودته قوة النطق فأخذ يشكر الله ويحمده مملوءً من الروح ومسبحاً الرب بنشيد أشبه بالتسابيح العبرانية القديمة[1].

وقد وردت عدة أمور عن النبي زكريا وابنه يحيى في إنجيل لوقا.

ففي الإصحاح الأول يرد: (كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات. وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم ولم يكن لهما ولد إذ كانت أليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما. فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج. وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب. ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم إليهم بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الأباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيء للرب شعباً مستعداً فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها فأجاب الملاك وقال له أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأُرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ص٤٢٨.

اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا متعجبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يُوحي إليهم وبقي صامتاً[1]. ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته. وبعد تلك الأيام حبلت أليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة هكذا فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إلي لينزع عاري بين الناس). لوقا ١ : ٢٣ ـ ٢٥.

وينتقل إنجيل لوقا إلى الحديث عن مريم العذراء وحملها وكل ما يتعلق بولادة المسيح عليه السلام.

فالحديث عن زكريا في إنجيل لوقا لا يماثله ما جاء في إنجيل مرقص حيث أن هذا الإنجيل يتحدث مباشرة عن بعثة المسيح وتجواله لهداية بني إسرائيل. وكذلك لو نظرنا في إنجيل متى وجدنا أن الحديث في الإصحاح الأول يدو عن نسب عيسى عليه السلام وعن مريم وخطيبها يوسف ثم حملها من الروح القدس كما يقول الإنجيل وإنجيل يوحنا يتحدث في الإصحاح الأول عن فلسفة الألوهية والتجسد ثم عن لقائه بالمسيح والتعاليم التي قالها.

وكما يقر اللاهوت المسيحي فإن إنجيل متى كتب لليهود وإنجيل مرقص كتب للرومان وإنجيل لوقا كتب لليونان وإنجيل يوحنا كتب للعالم المسيحي[2].

ونعود إلى النص القرآني وكيف تناول قصة النبي زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ففي سورة مريم قال الله تعالى:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً

---

(١) إنجيل لوقا. الإصحاح الأول، ٥ ـ ٢٢.

(٢) الإنجيل بحسب القديس متى. القمص تادروس يعقوب ملطي ص١٨.

خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن
سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ
وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم ١ - ١٥].

وقد ورد الحديث عن زكريا في سورة آل عمران فقال تعالى:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَب لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ
الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ
بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران ٣٧ - ٤١].

فحوادث القصة بشكل عام هي نفسها كما وردت في إنجيل لوقا وفي

القرآن الكريم وتبقى الاختلافات في المفاهيم وفي بعض الأمور الأخرى.

فزكريا نبي مرسل حسب نص القرآن الكريم. بينما حسب ما قاله لوقا في بداية الإصحاح الأول من إنجيله فإن زكريا كاهن يكهن للرب ولكن الصفات التي أطلقها لوقا على زكريا هي صفات الأنبياء (وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه) وفي القرآن الكريم ورد أن زكريا كان قائماً يصلي في المحراب. بينما في إنجيل لوقا دخل إلى هيكل الرب وبخر. وظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. وصمته عن الكلام هو نفسه في نص لوقا ونص القرآن الكريم. غير أن الاختلاف يقع في مدة عدم نطق زكريا. فالقرآن الكريم حدد ثلاثة أيام أو ثلاث ليال بينما جعل لوقا المدة أطول حيث جعلها إلى اليوم الذي يكون فيه هذا. أي عندما يأتي ابنه يحيى إلى الوجود.

ويستدل مما ورد في إنجيل لوقا أن اليهود في ظل الحكم الروماني كانت لهم طقوسهم وعاداتهم الدينية. وقد كان المعبد الذي يقدسون فيه موجوداً. لكن ورود كلمة محراب في القرآن الكريم يدل على أن زكريا كان على ديانة التوحيد التي كان عليها بقية الأنبياء السابقين. ولم يورد القرآن الكريم كيفية موت زكريا أو يحيى عليهما السلام واقتصرت الآيات على الحديث عن علاقة واضحة بينهما وبين مريم بنت عمران وأمها.

وقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا تفصيل لولادة أم يحيى وتسميته واستغراب اليهود من اسمه (يوحنا) ثم تحدث عن تأييد الله له. وهناك إشارات تدل على أن يوحنا (يحيى) نبي وليس كاهناً فقط. (وأنت أيها الصبي نبيَّ الله تدعى) لوقا ١ : ٧٦ بينما لم يشر الإنجيل باللفظ إلى نبوة زكريا.

وترد في إنجيل لوقا قصة قتل النبي يحيى على يد الملك هيرودس وزوجته الخائنة هيروديا بعد أن رفض يحيى عقد قرانهما لأن هيرودس اختطفها من

زوجها وهو أخوه وأراد الزواج منها. فانتقمت هي وهدريان منه وقال لوقا بأنه قطع رأس يحيى.

أما عن العلاقة التي تربط النبي زكريا وابنه يحيى بامرأة عمران وابنتها مريم والسيد المسيح عليه السلام. فهي تبدو في القرآن الكريم علاقة تواصل وقربى وإن لم يصرح بتسمية هذه العلاقة وصفتها.

وقد جاء في سورة عمران بقوله تعالى:

﴿وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾. وكفلها تعني ضمها إليه. يورد المفسرون المسلمون أن أمها لما ولدتها أي مريم لفتها بخرقة وأتت بها الأحبار سدنة بيت المقدس وقالت دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال زكريا عليه السلام أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقالوا لا حتى نقترع فانطلقوا وهم تسعة وعشرون إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها فثبت قلم زكريا فأخذها. وبنى لها غرفة في المسجد بسلّم لا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[1].

وقد أشارت آية من القرآن الكريم لذلك في قوله تعالى مخاطباً رسوله العظيم محمداً ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[آل عمران ٤٤].

ويرد في إنجيل لوقا أن المسيح عليه السلام قال عن يوحنا (يحيى) كلاماً لا يصح إلا بالأنبياء (فلما مضى رسولاً يوحنا ابتدأ يقول للجموع عن يوحنا: ماذا

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محمد طه الدرة، المجلد الثاني ص١٢٢.

خرجتم إلى البرية لتنظروا أقصبة تحركها الريح بل ماذا خرجتم لتنظروا إنساناً لابساً ثياباً ناعمة هوذا الذين في اللباس الفاخر والتنعم هم في قصور الملوك. بل ماذا خرجتم لتنظروا، أنبيّاً نعم أقول لكم وأفضل من نبي. هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك. لأني أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان) لوقا ٧: ٢٤ ـ ٢٨.

وتحدث إنجيل متى وإنجيل مرقص عن قصة استشهاد يحيى عليه السلام. وذلك في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل متى والإصحاح السادس من إنجيل مرقص. وقد أوردنا بعض الفقرات التي تحدثت عن قتله على يد هيرودس والمرأة هيروديا التي خانت زوجها وأرادت الزواج من هيرودس. فرفض يحيى هذا الزواج مما جعل الملك يحقد عليه ويدبر قتله.

امرأة عمران ومريم العذراء

لا شك أن جوهر المسألة في ولادة المسيح عليه السلام يكمن في معجزة حمل مريم به، ولكن لابد للقصة من جذور وعلاقات إنسانية مهدت مادياً ومعنوياً لولادة السيد المسيح. ففي القرآن الكريم حديث عن آل عمران وزوجة عمران والدة مريم وهذا الحديث له علاقة أصلية بعقيدة التوحيد وتنفيذ وعد الله سبحانه.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران ٣٥ ـ ٣٦].

فهذه الآيات التي تشير إلى أم مريم أي زوجة عمران نفتقدها في إنجيل لوقا وبقية الأناجيل ولا تعير هذه الشخصية أي اهتمام.

بينما هو كذلك فإن القرآن الكريم يورد في الآية ٣٣ من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

فاصطفاء عيسى بن مريم وأمه واصطفاء آل عمران اصطفاء رباني فامرأة عمران تظهر في القرآن الكريم إنسانة موحدة مرتبطة بدعائها بالله تعالى: وعندما يربط القرآن الكريم مريم بأمها وآل عمران فإنه يربطها ربطاً مباركاً وهي سلسلة متسلسلة لا تأتي من فراغ إنما هي تأكيد على تسلسل عقيدة التوحيد مع تسلسل

آل عمران عبر التاريخ. وعمران هذا أبو مريم وهو غير أبي موسى وامرأة عمران اسمها حنّة، كما ورد في بعض المصادر دعت الله أن يرزقها ولداً لما كبرت واشتاقت للولد وكانت قد أحست بالحمل. وعمران هذا لم يكن نبياً وكذا أبو موسى لم يكن نبياً. وقد وهبت ما في بطنها لله على ظنها أنه سيكون ذكراً فلما ولدتها أنثى نذرتها للمعبد ودعت الله أن يحمي مريم وذريتها من الشيطان الرجيم ففي هذه الحال لا يمكن الحديث عن مريم منعزلة عن أمها وآل عمران. بل من المفترض أن نرى هذا الرابط بين شخصية مريم ونسبها الكريم وكذلك بين شخصية النبي عيسى عليه السلام وأمه وجدته وجده وآل عمران.

لقد اختار الله سبحانه مريم لتكون أماً للنبي عيسى عليه السلام لأنها في الأساس مختارة لتكون بنتاً لامرأة عمران التي دعت ربها أن يهبط مولوداً مباركاً تنذره للمعبد وعبادة الله الواحد، وسنرى من خلال آيات القرآن الكريم ومن بعض لقطات بُثت في الأناجيل سيرة مريم قبل أن تحمل بالمسيح عليه السلام. فهي كشخصية مهدها الله وربّاها من خلال النبي زكريا لتكون أماً للنبي عيسى.

مريم كما وردت في القرآن الكريم والأناجيل

ورد الحديث عن مريم بشكل مفصل في القرآن الكريم وفي الأناجيل على اعتبارها منشأ قصة الولادة المعجزة للسيد المسيح . ودورها في قصة المسيح عليه السلام دور أساسي لا يمكن تناسيه أو تغافله .

وقد أورد القرآن الكريم سورة كاملة باسم سورة مريم وسورة أخرى باسم آل عمران وهذا دليل على أن قصة ولادة المسيح عليه السلام لها شأن مهم في القرآن الكريم في حياة عقيدة التوحيد مهما شملت ومهما اتسعت .

يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم ١٦-٣٣].

وجاء في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران ٤٢ - ٤٣].

ويقول: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران ٤٥ - ٤٦ - ٤٧].

بعد إيراد هذه الآيات الكريمة نستعرض ما قالته الأناجيل لنرى مدى الاتفاق ومدى الافتراق.

جاء في إنجيل متى: (لما كانت أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان لكي يتم ما قبل من الرب بالنبي القائل هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع) متى: ١ : ١٨ - ٢٤.

ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية... متى ٢ : ١

وهذا ما جاء في إنجيل متى عن حمل مريم وولادتها. ونلاحظ أنه لم يهتم بمريم إلا بشكل هامشي. ونلاحظ أيضاً الاختصار الشديد في الحديث عن الأحداث وكأن المعجزة أي ولادة المسيح وحمل مريم به لا تعني شيئاً لإنجيل متى.

أما إنجيل مرقص فلا يأتي على ذكر الحمل مطلقاً حيث يبدأ الإصحاح الأول بالحديث عن رؤيا يوحنا (يحيى) وتبشيره بقدوم المسيح ثم مجيء يسوع إلى الناصرة ليدعو.

أما إنجيل لوقا فيختلف اختلافاً جذرياً عن الإنجيلين السابقين حيث أنه يتحدث بالتفصيل عن ملاك الرب وتبشيره لمريم بحمل المسيح وحتى ولادته.

جاء في إنجيل لوقا: (وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك مباركة أنت في النساء فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً. فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله. وهو ذا أليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم هو ذا أنا أمة

الرب ليكن لي قولك فمضى من عندها الملاك).

ويتوقف إنجيل لوقا عند هذا الحد لينتقل فجأة إلى حديث آخر يبيّن أن مريم قد ولدت فيقول: (فقال لهم الملاك لا تخافوا فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب وهذه لكن العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مُضجعاً في مذود وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين المجدُ لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة). لوقا إصحاح ٢: ١٠ ـ ١٤.

وفي الإصحاح الثاني نفسه وفي الفقرة ٢١ يقول لوقا: (ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن) لوقا ٢: ٢١.

والملاحظ في هذا الإنجيل أن قصة حبل مريم وولادتها وما عانته من ذلك لم ترد. وأغفلت تماماً.

أما إنجيل يوحنا فلم يأت على ذكر حمل مريم وولادة السيد المسيح عليه السلام شأنه في ذلك كشأن إنجيل مرقص وإنجيل متى. حيث ابتدأ بالحديث عن يوحنا وتمهيده لدعوة المسيح عليه السلام.

ومن خلال النظر في الأناجيل الأربعة نستطيع أن نلغي مبدأ المقارنة بين أناجيل ثلاثة وبين القرآن الكريم بشأن حمل مريم ومخاضها وولادتها ويبقى إنجيل لوقا الوحيد الذي يمكن أن نقارن نصوصه بنصوص القرآن الكريم كون التشابه كبيراً وكذلك الاختلافات ويبقى أن نشير إلى جوهر المسألة في هذه المقارنة وهي إقرار الإنجيل ـ لوقا ـ بألوهية المسيح وهذا ما سنراه مقحماً على النص الإنجيلي إقحاماً واضحاً.

وقبل الدخول إلى عالم مقارنة النص بالنص لابد لنا أن نرى ما ذا يقول

إنجيل برنابا على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة بكل فروعها به .

جاء في إنجيل برنابا : (لقد بعث الله في هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهودا . بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب ، المنزهة عن اللوم . المثابرة على الصلاة مع الصوم يوماً ما وحدها وإذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلاً ليكن الله معك يا مريم فارتاعت العذراء من ظهور الملاك . ولكن الملاك سكن روعها قائلاً لا تخافي يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذي اختارك لتكوني أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل ليسلكوا في شرائعه بإخلاص . فأجابت العذراء وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلاً . فأجاب الملاك يا مريم إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيك إنساناً من غير إنسان لأنه لا محال عنده . فأجابت مريم إني لعالمة أن الله قدير لتكن مشيئته فقال الملاك كوني حاملاً بالنبي الذي ستدعينه يسوع فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس لأن الطفل قدوس الله . فانحنت مريم بضعة قائلة ها أنا ذا أمة الله فليكن بحسب كلمتك . فانصرف الملاك . أما العذراء فمجدت الله قائلة أعرف يا نفس عظمة الله وافخري يا روحي بالله مخلصي) إنجيل برنابا ، الفصل الأول ١ ـ ١٤ .

وعن ولادتها يقول برنابا : (وبينما كان يوسف مقيماً هناك تمت أيام مريم لتلد فأحاط بالعذراء نور شديد التألق وولدت ابنها بدون ألم وأخذته على ذراعيها . وبعد أن ربطته بأقمطة وضعته في المذود . إذ لم يوجد موضع في النزل فجاء جوق غفير من الملائكة إلى النزل بطرب يسبحون الله ويذيعون بشرى السلام لخائفي الله وحمدت مريم ويوسف الله على ولادة يسوع وقاما على تربيته بأعظم سرور) برنابا ، الفصل الثالث ٨ ـ ١٥ .

وجاء أيضاً : (فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب كما هو مكتوب

في كتاب موسى أخذا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختتناه. فختنا الطفل وسمياه يسوع كما قال الملاك قبل أن حبل به في الرحم فعلمت مريم ويوسف أن الطفل سيكون لخلاص وهلاك كثيرين لذلك اتقيا الله وحفظا الطفل وربياه على خوف الله» برنابا، الفصل الخامس ١ ـ ٤.

ولنعد إلى مقارنة ما ورد في إنجيل لوقا وإنجيل برنابا بما وَرَدَ في القرآن الكريم بشأن الحديث عن مريم وحبلها وولادتها.

في إنجيل لوقا: أرسل جبريل الملاك من الله إلى مدينة في الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة وقال سلام عليك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت في النساء.

وفي القرآن الكريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

في إنجيل لوقا: فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية.

في القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

في إنجيل لوقا: فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع.

وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

في إنجيل لوقا: فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً.

وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

في إنجيل لوقا: فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك.

وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

في القرآن الكريم: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا... وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾.

في إنجيل لوقا: ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً.

فالنصان يتشابهان في أن ملاك الله بشر مريم بأنها ستحمل ابناً بأمر الله. وأن مريم ارتعبت من رؤية الملاك. وأنها تساءلت كيف يكون لها ولد وهي لا تعرف رجلاً وأن جواب ملاك الله تضمن أمر الله بذلك. وأن المولود سيكون عظيماً ذا شأن.

ونتوقف هنا عند الاختلافات وهي جوهرية في العقيدة.

فالقرآن الكريم يقول (لأهب لك غلاماً زكياً) ولنجعله آية للناس ورحمة منا بينما جاء في إنجيل لوقا: (وابنَ العلي يُدعى) (فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابنِ الله).

ولو دققنا في إنجيل برنابا لوجدنا أن هاتين الجملتين اللتين تقرران أن المسيح ابن الله يُدعى قد جاءتا بشكل مخالف تماماً حيث يقول إنجيل برنابا (لتكوني أم نبي يبعثه الله إلى شعب إسرائيل) (كوني حاملاً بالنبي الذي ستدعينه يسوع) وقد جاء في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

وهذا يتشابه مع قول إنجيل لوقا حيث يقول: (وتلدين ابناً وتسمينه يسوع).

ولكن التشابه الأكبر يقع مع إنجيل برنابا حيث يقول: كوني حاملاً بالنبي

الذي ستدعينه يسوع.

ويقول تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران ٤٧].

وهذا ما نجد مشابهاً له في قول إنجيل برنابا: إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيك إنساناً من غير إنسان لأنه لا محال عنده. وهذا مفتقد في إنجيل لوقا.

وفي هذا الإطار لن نناقش فحوى الجملتين الواردتين في إنجيل لوقا ـ وهما (وابن العلي يُدعى) (فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله لأن مجالهما في فصل آخر يتعرض للمسائل العقيدية وأهمها ألوهية المسيح التي ادعتها الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى الكنيسة).

يكفي أن نقول هنا إن المفترض الذي يتناسب عقلاً وعقيدة ومنطقاً مع القرآن الكريم وإنجيل برنابا أن تأتي ألفاظ الجملتين على الشكل التالي: (ونبي الله يدعى) و(يدعى نبي الله) وفي الحالتين فإن كلمة نبي تحل محل كلمة ابن.

أما ولادة مريم بالسيد المسيح فلم نعثر عليها في الأناجيل. وقد اقتصر الحديث فيها عن حدوث الولادة ووضع المولود في المذود ومجيء الملائكة للتسبيح بمناسبة هذه الولادة.

بينما نجد في القرآن الكريم تفصيلاً لما حدث، حيث نرى الحدث البشري الإنساني كما نراه في واقع المرأة الحامل. وأعتقد أن سياق الآيات القرآنية الذي يخبرنا عن هذا الحدث يدلنا على مسألة هامة جداً وهي التصاق الحدث ببشرية المسيح وليس للقرآن غايات مبهمة. فالغاية واضحة وهي تأكيد بشرية المسيح الذي لم يلد بلا معاناة من أمة.

ماذا تقول آيات القرآن الكريم؟

يقول تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم ٢٢ ـ ٢٨].

والواقع أن سياق الآيات القرآنية يسلسل الحدث بشكل منطقي مع ما يحمله من أبعاد واقعية ونفسية وعقيدية. فمريم خضعت للأمر الإلهي بعد أن بدأ حملها بالجنين وبسبب من خوفها من فضيحة وعار يلحقان بها ابتعدت عن أهلها وتوارت. وإذ هي كذلك إذ جاءها المخاض فلجأت إلى جذع نخلة لتختفي عن أعين البشر. وبسبب معاناتها الجسدية وآلام المخاض ولأسباب نفسية واضحة تمنت الموت قبل أن ترى هذه الآلام وفي هذه الحال من اليأس والألم والبكاء بتدخل ملاك الله ليطمئنها أن الله قد جعل تحتها سريا أي نهراً جارياً. وقد قيل نهراً سرياً أي جارياً وكان قد جف ماؤه فأجراه الله لمريم تكريماً لها وقيل ضرب جبريل برجله في الأرض فظهرت عين ماء عذبة وجرت وقال لها هزي وحركي نحوك جذع النخلة التي أحياها الله لك فأورقت وأثمرت وأنت تنظرين إليها في ساعة واحدة تساقط عليك من ثمرها الطيب ـ الرطب ـ. فكلي منه واشربي من السري وقري عيناً برؤية الولد النبي.

فهذا السياق المنطقي هو سياق يطمئن له القلب والعقل دون شكوك. فهو إلى جانب المعجزة الإلهية في عدة أمور إلا أنه يدل على وضع إنساني بشري تعيشه امرأة حامل وقد جاءها المخاض فعانت من آلام الوضع ما عانت.

معجزة المسيح- الميلاد العذراوي

كيف ولد المسيح دون لقاء بين مريم ورجل؟

شكل هذا الموضوع أحد أهم الإشكالات لدى الكثير من المسيحيين خاصة البروتستانت ولدى الكثير ممن لا يؤمنون بالمعجزة الإلهية. فالمسيح عليه السلام هو الوحيد بين البشرية جمعاء الذي حملت به أمه من دون زواج أو لقاء جنسي.

فحسب إنجيل لوقا فإن للروح القدس دوراً في حمل مريم إذ يقول: (إن الروح القدس سينزل عليك وقدرة العلي تظللك لذلك يكون المولود قدوساً) لوقا ١: ٣٦.

بينما نرى القرآن الكريم يظهر طبيعة خلق المسيح عليه السلام ومن طبيعة حمل أمه به وولادته من دون زوج أو لقاء بين مريم وأي رجل.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران/ ٥٩].

فعيسى عليه السلام لا يختلف عن آدم في أصل خلقه. فهو ذو أصل ترابي ثم تكوَّن بأمر الله بشراً من لحم وعظم ودم. وهذا الأصل يحمل في طبيعته الفناء وكل ما خُلق من تراب سيعود إليه بعد أن يتوفاه الله.

ففي النص القرآني حديث عن أصل الخلق، ثم عن أمر الله بالخلق. كن فيكون...

وقد وردت آيات قرآنية تتحدث عن النفخ على اعتباره سبباً في حمل مريم بالمسيح عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء/ ٩١].

ويقول تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم/ ١٢].

ويستدل على المعجزة الإلهية في خلق المسيح عليه السلام من خلال خلق الله سبحانه لآدم وحواء. فآدم خلق من غير ذكر وأنثى، وحواء خلقت من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى. فللمعجزة أمثالها المعروفة المحددة في القرآن الكريم.

ويجمع المفسرون المسلمون على أن مريم أول امرأة قبلت في النذر في المتعبد. ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده. وقد أحصنت فرجها وامتنعت من الفاحشة وقالوا إنه من لطيف الكناية أنه عنى بفرجها فتحة ثوبها من الأعلى. لا سيما أن النفخ من روح القدس بأمر القدوس. ونفخنا فيه من روحنا أي أمرنا جبريل أن ينفخ في فرج ثوبها الأعلى فأحدثنا من ذلك النفخ المسيح في بطنها. وقالوا نفخ جبريل في جيب درعها فوصل أثر النفخ إلى رحمها بقدرة الله[1].

ويرى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رضي الله عنه في ذلك رأينا مفصلاً في كتابه فصوص الحكم. فيقول: (فلما تمثل الروح الأمين الذي هو جبريل لمريم عليهما السلام بشراً سوياً تخيلت أنه بشر يريد مواقعتها فاستعاذت بالله منه استعاذة بجمعية منها ليخلصها الله منه لما تعلم أن ذلك مما لا يجوز.

---

(١) محمد الدرة. إعراب القرآن وبيانه المجلد ٩، صفحة ١١٤.

فحصل لها حضور تام مع الله وهو الروح المعنوي. فلو نفخ فيها في ذلك الوقت على هذه الحالة لخرج عيسى لا يطيقه أحد لشكاسة خُلُقه لحال أمه. فلما قال لها إنما أنا رسول ربك جئت لأهب لك غلاماً زكياً) انبسطت عن ذلك القبض وانشرح صدرها. فنفخ فيها في ذلك الحين عيسى. فكان جبريل ناقلاً لكلمة الله تعالى لمريم كما ينقل الرسول كلام الله لأمته وهو قوله (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه).[1]

وبسبب قصور الفهم البشري لطبيعة النفخ وقع الخلاف بين أهل الملل في عيسى ما هو؟ (فمن ناظَرَ فيه من حيث صورته الإنسانية البشرية فيقول هو ابن مريم. ومن ناظَرَ فيه من حيث ما ظهر من إحياء الموتى فينسب إلى الله بالروحية. ومن ناظَرَ فيه من حيث الصورة الممثلة البشرية فينسبه لجبريل، فتارة يكون الحق فيه متوهّماً. وتارة يكون الملك فيه متوهماً وتارة تكون البشرية الإنسانية فيه متوهمة. فيكون عند كل ناظر بحسب ما يغلب عليه. فهو كلمة الله وهو روح الله وهو عبدالله وليس ذلك في الصورة الحسية لغيره بل إلى أبيه الصوري لا إلى النافخ روحه في الصورة البشرية).[2]

وقد رفض الكثير من المسيحيين خاصة البروتستانت عقيدة الميلاد العذرائي أو الحبل بدون أي علاقة جنسية. وهؤلاء ينتمون إلى جماعة المتحررين والبروتستانتية الحديثة وطوائف أخرى والأسباب التي من أجلها يرفض هؤلاء عقيدة الميلاد العذرائي بدون أي علاقة جنسية هي صعوبات علمية وصعوبات كتابية وصعوبات ناشئة عن مشكلة شجرة النسب.

فهذه الجماعة ترفض رفضاً باتاً كل ما هو خارق للطبيعة. وكل ما لا يمكن

---

(١) محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، ج١ ص١٣٨

(٢) محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، ج١ ص١٣٨

تفسيره أو تحليله أو التأكد منه بطريقة علمية. وبما أن الميلاد العذرائي ظاهرة لا يمكن تحليلها أو التأكد منها بطريقة علمية فلا يمكن قبولها. إن غياب العامل الذكري هو استحالة بيولوجية لا يمكن بأي حال من الأحوال حلها إلا عن طريق الإنجاب الصناعي الأمر الذي لم يكن معروفاً في ذلك الوقت. وحتى الإنجاب الصناعي فعامل الذكر موجود. وعن طريقه يتم الإنجاب. وبرونر يظن أن الميلاد العذرائي ينفي العامل الذكري. وبناء عليه فهو يقلل من ناسوت المسيح. فوجود الرجل في هذه العملية أمر هام جداً. لهذا السبب البيولوجي والطبيعي يرفض هؤلاء الميلاد العذرائي. والصعوبات الكتابية تعني حسب هذه الفئة أن مرقص ويوحنا لا يذكران شيئاً عن قصة الميلاد العذرائي. فمع أن يوحنا يتكلم عن الكلمة الذي كان في البدء والذي كان عند الله إلا أنه لم يشرح لنا بوضوح أن هذا الكلمة جاء إلينا متجسداً في بطن مريم بدون تدخل أي عامل ذكري ويقول معارضو فكرة الحبل العذرائي المعجزي: إنه ممكن أن تتم هذه العملية بطريقة طبيعية باتحاد رجل وامرأة ويكون المولود (اللوغوس).

أما بالنسبة لسلسلة النسب فإن الرافضين للميلاد العذرائي يقولون: إن سلسلتي النسب في إنجيل متى ١ : ٢ ـ ١٦ وإنجيل لوقا ٣٣ : ٢٣ ـ ٣٨ تذكران أن شجرة يوسف وليس شجرة نسب مريم هي الموجودة فيهما. فحتى يصل متى إلى هدفه. أي لكي يبين بأن المسيح هو من نسل داود يعطي لنا سلسلة طويلة من الأسماء التي تنتهي بالقول: «ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح». أما لوقا فلكي يصل إلى نفس الهدف أي بأن يسوع هو ابن يوسف وابن داود فيقول: ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف ابن هالي ابن داود ابن آدم... ابن الله» (لوقا ٣: ٢٣ ـ ٣٨) وبناء على ذلك فإن لم يكن يوسف هو الأب الشرعي ليسوع فلا يمكن أن يكون يسوع هو ابن داود. فإذا كان المسيح قد ولد بطريقة معجزية دون أي اتصال

جنسي بين مريم ويوسف فإن يسوع يفقد نسبه لداود الأمر الذي يتمسك به عدد كبير من كتاب العهد الجديد)[1]

وقد أشار القرآن الكريم إلى اختلاف الناس في مولد المسيح وطبيعته. فقال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم/ ٣٧]. أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه فمن قائل من اليهود إنه ولد زانية واستمروا على كفرهم وعنادهم وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله وقال آخرون هو ابن الله وقال المؤمنون هو عبدالله ورسوله وابن أمته وكلمة ألقاها إلى مريم. وروح منه[2] على أي حال فالمسيح عليه السلام معجزة الله وكلمته ألقاها إلى مريم. ولكنه في الأحوال كلها نبي من أولي العزم أُرسل إلى قومه من بني إسرائيل. ومثله كمثل آدم في أصل الخلق. ولا عجب في ذلك فقد سبقه خلق آدم من لا شيء وهذا أبلغ إعجازاً ومعجزة.

---

(١) القس الدكتور حنا الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، صفحة ١٧٣ ـ ١٧٤ المجلد الأول.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد ١، صفحة ٥٥.

متى ولد المسيح عليه السلام؟

لقد اعتقد الكثيرون وما زالوا يعتقدون بأن التقويم الميلادي الحالي يحدد لنا سنة ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ويحدد لنا رأس السنة الميلادية. فعندما نقول مثلاً سنة ٢٠٠٠ يظن أكثر الناس أن هذا التاريخ يحدد لنا تاريخ الميلاد أو بدء السنة الميلادية. ففي عرفهم أن المسيح عليه السلام وُلد في بيت لحم منذ ٢٠٠٠ عام وحقيقة الأمر تختلف عن ذلك. إذ أن التقويم الميلادي الحالي لا يدل على ميلاد المسيح ولا السنة الميلادية أو على التاريخ الحقيقي لهما.

ويرجع عدم الصواب في ذلك أو بعبارة أصح عدم التأكد من حقيقة هذا التاريخ إلى طبيعة وطريقة التدوين التي استعملها الراهب دينيسيوس الصغير الأرمني الأصل. وهو أول من حاول أن يدوّن لميلاد المسيح ورأس السنة الميلادية فهذا الراهب - دينيسيوس الصغير - وضع تقويمه في بداية القرن السادس متخذاً التقويم الروماني قاعدة لحسابه.

ومن المعروف أن القويم الروماني يبدأ بسنة ٧٤٥ ق. م وهي السنة التي تأسست فيها روما. وعليه فقد ظن بأن ما يسمى عملية التجسد حدثت في سنة واحد. وبذلك تصبح سنة واحد هي سنة التجسد والسنة الفاصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد والواقع أن الكنيسة لم تبدأ الاحتفال بعيد الميلاد قبل القرن الثالث. وكان يحتفل في السادس من شهر كانون الثاني.

على أن الأب هولز مشتين Holz Meisten حاول جمع بعض الوثائق

التاريخية الخاصة بميلاد المسيح والتي يستنتج بأن الميلاد حدث في الفترة ما بين سنتي ٥ ق.م ـ ٢ بعد الميلاد.

على أن بعض المؤرخين يظن أن سنة الميلاد تقع بين سنتي ٧ ق.م وسنة ٣ ب.م يقول الدكتور القس حنا الخضري في ذلك:

ولكن عندما ندرس الأناجيل والتاريخ بطريقة واعية يمكننا الوصول إلى تحديد تاريخ تقريبي بميلاد يسوع فإن: إنجيلي متى ولوقا يسجلان لنا أن حادثة التجسيد والميلاد تمتّا في آخر أيام هيرودس الملك (متى ٢ : ١، لوقا ١ : ٥، ٢٦) ونحن نعلم أن هيرودس الملك الكبير مات حوالي سنة ٧٥٠ رومانية أي بين سنتي ٦ و٤ ق.م ويحتمل أنه مات بعد ميلاد المسيح بعدة شهور وقبل الفصح أي في حوالي شهري مارس أو إبريل (آذار ـ نيسان) وهذا واضح من كلام الملاك ليوسف في مصر. (فلما مات هيرودس الملك إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي) متى ٢ : ١٩ ـ ٢٠ وبما أن تاريخ هيرودس معروف لنا وهو حوالي سنة ٤ ق.م حسب التقويم الروماني، فالذي نجهله هو تاريخ التجسد أو الميلاد، وهو لا يمكن أن يتعدى السنتين قبل موت هيرودس. وهذا واضح في قصة المجوس (حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جداً فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم، وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس) متى ٢ : ١٦.

على أن لوقا من جانبه يعطي لنا بعض التفصيلات التي تساعدنا كثيراً على تحديد تاريخ الميلاد ففي الإصحاح الثاني يقول: وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة (لوقا ٢ : ١ـ٦) لقد ظل المؤرخون مدة طويلة يرفضون هذه الآية وحجتهم في ذلك أن التاريخ الروماني لم يسجل هذا

الاكتتاب أو الإحصاء الذي يتكلم عنه الإنجيل وظنوا أن لوقا أخطأ خطأ تاريخياً شنيعاً. ولكن علم الحفريات قدم لنا مؤخراً جواباً يؤكد قول لوقا. فإن الحفريات التي أجريت في بعض القرى وفي بعض المدن والصحارى المصرية كشفت لنا عن بعض أوراق البردي التي تحتوي على وثائق تاريخية يذكر فيها أمر الإحصاء في بلاد مصر وبلاد الغال وسوريا. وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن أمر الإحصاء نفذ أيضاً في فلسطين. وكانت عملية الإحصاء كما تصفها لنا الأوراق البردية تجري كل أربعة عشر عاماً. ولقد بدأت عملية الإحصاء هنا من سنة ٢٠ ق. م إلى سنة ٢٧٠ ب. م فإذا كان الإحصاء الأول تم في سنة ٢٠ فالإحصاء الثاني تم إذاً في سنة ٦ ق. م ويحتمل أن يكون في آخر السنة. وعلى ذلك يكون ميلاد المسيح بين سنتي ٦ و٤ ق. م.

فهذه بعض الشواهد المسيحية على عدم الدقة في معرفة ميلاد المسيح عليه السلام فمرة يكون الفرق عشر سنوات، ومرة يكون الفرق ست سنوات أو أربع وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن ميلاد المسيح غير معروف على وجه التحديد والدقة.

فالمقياس العلمي والموضوعي والمنطق التاريخي لا يقبل تخمين أي واقعة تاريخية إن لم تكن دقيقة في تاريخها. فإذا كانت كافة الدراسات تشير إلى أن ميلاد المسيح تم بعد عشر سنوات أو أربع سنوات أو ست سنوات من التاريخ الذي دوّنه المؤرخون الغربيون فكيف لنا أن نعرف أي شهر أو أي يوم تمت فيه ولادة السيد المسيح عليه السلام.

وإذا كانت المصادر المسيحية الغربية نفسها تقر بذلك فكيف يمكن أن نقبل بالتأريخ الغربي الإفرنجي. ثم كيف تبقى الذاكرة معلقة بالخامس والعشرين من شهر ١٢ أي شهر كانون الأول كمناسبة للاحتفال بعيد ميلاد المسيح عليه

السلام وكذلك بالأول من الشهر الأول كمناسبة بما يسمى عيد رأس السنة الميلادية؟

على أية حال فإننا نورد هذه الأمور باعتبار أن العلاقة الوطيدة القائمة بين التأريخ وبين ميلاد المسيح الحقيقي تشكل في الفكر المسيحي قضية حساسة وهامة وتقوم عليها طقوس وأعياد مسيحية.

إن ميلاد المسيح الحقيقي لم يكن ليُعرف من قبل أحد سوى أمه أو المقربين منه. وهؤلاء لم يذكروا متى وُلد ولا متى حملت مريم به. وقد رأينا أن التأريخ بميلاده قد تم بعده بستة قرون. والمؤرخون لم يستندوا على وثيقة صحيحة أو شهادة عيان. لذلك ظل التأريخ المستند على ميلاد المسيح تأريخاً تخمينياً يفتقد إلى الموضوعية ويفتقد للتصديق.